

المحاضرة 02: تطور الفكر الاجتماعي في العصور الوسطى

أولاً: الفكر الاجتماعي الأوربي المسيحي في العصور الوسطى:

كانت الفلسفة المسيحية في طور النشأة والتكوين في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الرومانية في طريقها للانحيار والتدهور وقد كان أهم ما كرسه المسيحية وأولته غايتها الفائقة فكرة المساواة بين الأفراد، فلقد هاجموا الرق واعتبروه يتعارض مع القوانين الإلهية.

أ- الفكر الاجتماعي عند القديس أوغسطين (354-430م)

سعى أوغسطين خلال القرن الخامس ميلادي إلى صياغة الفكر المسيحي وتنظيره متأثراً بالتراث الفلسفي اليوناني خاصة فلسفة أفلاطون، فهو يمثل الفلسفة المسيحية في قرونها الأولى وقد لعبت التحليلات التي وردت في مؤلفه "مدينة الله" دوراً كبيراً في الفكر الاجتماعي حيث عالج الحق الطبيعي والحق الإلهي وشرعية السلطة السياسية والسلطة الدينية والنزعة الإنسانية ودور العقيدة الدينية في إعلاء العلاقات البشرية وفقاً للمبادئ الأخلاقية السامية كما ناقش واجب السلطة السياسية في ضرورة العمل على تحقيق العدالة الاجتماعية. ومن مقومات المجتمع في نظره اشتراك الأفراد في الفكر والعاطفة مما يقيم بينهم نوعاً من الوحدة المعنوية، ويرى أن كل فرد ينتمي إلى عالمين العالم الأرضي العلماني والعالم السماوي الإلهي وتتجاوزه قوانين هذين العالمين وتشريعاتهما، العالم الأرضي يجذبه لمغريات تجربة لخطيئة الإثم والسماوي يجذبه إلى تعاليم السماء المقدسة والجهاد في سبيل تحقيق السعادة عن طريق العدالة الإلهية، وقد جعل هذا التمييز أساساً لفهم التاريخ البشري الذي يخضع باستمرار لاحتكاك هاتين الجماعتين فالأولى هي مدينة الشيطان الذي يتميزون بالأنانية ويميلون إلى إثارة أنفسهم أما مدينة الله فإن أخلاقهم تكون أخلاق سكان العالم السماوي وأن هاتين المدينتين ستخلطان وتتداخلان طوال الحياة ولا تنفصلان إلى يوم الحساب.

والحياة الاجتماعية تعتمد في بدايتها على مبادئ القانون الطبيعي وحينما يقع الناس في الخطيئة يصبح القانون الوضعي ضرورة اجتماعية، وما يتضمنه من إجراءات جزائية وعن هذه الضرورة استمدت السلطة الأرضية مبررات وجودها واستطاعت أن تفرض نظم الرق والملكية الفردية وغيرهما من الأمور التي تعتبر عقاباً من الله على خطيئة البشر، كما أنها من مستلزمات سلطة الدولة وركيزة للتنظيم الاجتماعي.

وعند تعرضه للملكية الفردية أرجع حق الملكية للذات الإلهية فالله هو المالك الحقيقي وهو الذي أسبغ هذا الحق على الجنس البشري فالملكية ليست حقاً طبيعياً أو قانونياً ولكنها ترجع لمصدر مقدس ومع ذلك فإن حماية الملكية من أهم واجبات الدولة، وينظر أوغسطين للرق نظرة مزدوجة فهو من وجهة نظر إنسانية هو نظام يحق إلغاؤه ومن وجهة نظر كونه نتيجة عقابية على خطايا البشر فهو نظام طبيعي يتماشى مع العدل الإلهي، ولما كانت الخطيئة لا تزال باقية فسوف تبقى الكثير من الآلام والآفات التي تعتبر الرق أحد مظاهرها الاجتماعية وزوال نظام الرق رهين بزوال التسلط والظلم والخطيئة وزوال هذه الظواهر الأخيرة لا يتم إلا

حينما يتولى الله نفسه السلطة المباشرة الأمر الذي لا يمكن أن يقام في الحياة الأرضية بل حينما يرث الله الأرض ومن عليها وينتقل البشر إلى المدينة أو العالم السماوي.

ومع بداية القرن الثالث عشر بدأ الفكر الاجتماعي يتضح مع أعمال ألبرتوس ماجنوس الذي حاول التعبير عن النظرة المسيحية تعبيرا فلسفيا فأستعان بمنطق أرسطو وفلسفته.

ب- توماس الإكويني:

يعد الإكويني أهم وأعظم لاهوتي وفيلسوف في العسر الوسيط في أوربا دعم الكنيسة بشكل كبير، كانت فلسفته تسعى إلى الوصول توحيد عام ونظام شامل مفتاحه الوفاق والتنسيق، الذي كان كتابه "نظام الحكم الأساسي" أعظم المؤلفات التي ظهرت خلال العصور الوسطى في الفكر الاجتماعي والسياسي، أشار توماس الإكويني أن المجتمع المدني يتضمن ثلاث أفكار رئيسية هي:

- الأول: أن الإنسان اجتماعي بطبعه.
- الثانية يضم المجتمع مجموعة من الأغراض والمصالح ولا يستطيع الإنسان تحقيق مصالحه بصورة أفضل إلا من خلال العلاقات الاجتماعية.
- الثالثة أن القوة العليا ضرورة لتوجيه المجتمع من أجل المصلحة المشتركة، ومساعدة الحاكم على استخدام قدراته الفائقة من أجل منفعة المجتمع.

وقد ذهب إلى أن السيادة السياسية هي سلطة من القوانين وهذه وظيفة كل أفراد المجتمع السياسي أو من يمثلونهم وقد أقر بمشروعية الملكية الخاصة إلا إذا ساد الفقر وعم الحرمان فتصبح الملكية عامة بين الجميع وقد اعترف بظاهرة الرق وسلم بها ورأى أنها تحقق دورا اجتماعيا أساسيا وهو عقاب البشر على خطاياهم، كما يضيف أن تحقيق الخير يتطلب وجود سلطة حاكمة تدير شؤونه واعتقد أن الحكم في عنق الجماعة الذي يسعى إلى الخير يعلو المجتمع الدنيوي لكن تحقيق ذلك يفوق طاقة البشر العاديين لذلك يجب أن يتولى هذه المهمة القساوسة لا الحكام.

ثانيا: تطور الفكر الاجتماعي عند المسلمين

اهتم العرب قبل الإسلام بالكثير من جوانب الفكر الاجتماعي حيث فكروا في شؤون الحياة والمجتمع وكانت لهم نظم اجتماعية ارتضوها فيما بينهم وحينما انتشر الإسلام حقق في فترة وجيزة وحدتهم القومية والإسلام دين اجتماعي بالدرجة الأولى، والنظام الاجتماعي في الإسلام جزء من الدين فقد اهتم هذا الدين بالعقائد والعبادات واهتم بالتشريعات الدقيقة التي تنظم الحياة الاجتماعية مثل: الزواج، الطلاق، الوراثة، الزكاة، الرق، الضوابط الاجتماعية، حقوق الإنسان وأعلى الكثير من القيم الفاضلة كالحرية والمساواة والتواد والتراحم، حث الإسلام على التفكير والاجتهاد وطلب العلم وقد اهتم المفكرون بطبيعة الحياة الاجتماعية لكنه كان ضئيلا وجاءت الكثير من الدراسات مختلطة بالدين والفلسفة ومنه يمكن أن نوجز لبعض المفكرين المسلمين أمثال: الفارابي، ابن سينا، ابن رشد، ابن خلدون.

1- الفارابي (874-950م):

ولد أبو نصر محمد بن طرفان بن أوزلع عام 260هـ – 870م بولاية فاراب، درس العلوم والفلسفة واللغات خاصة اللغة التركية – والفارسية وقد رحل من بلاد الترك مع والده إلى بغداد والتي تعلم فيها العربية والنحو والطب والمنطق ثم رحل إلى دمشق ثم إلى حلب وزار مصر وتوفي في دمشق عام 339 هـ – 950م

احتل الفارابي مكانة بارزة في الفكر الإسلامي حيث يقول المؤرخون " الحكماء أربعة اثنان قبل الإسلام هما أفلاطون وأرسطو واثنان في الإسلام هما الفارابي وابن سينا"، ولقب أيضا بالمعلم الثاني (الأول أرسطو)، تأثر كثيرا بأراء أرسطو فضلا عن الأفلاطونية الحديثة، يمثل الفارابي الإتجاه المثالي أو اليوطوبي في الفكر الإسلامي ومن أهم مؤلفاته في الشؤون الاجتماعية " آراء أهل المدينة الفاضلة"

أ- أهم أفكاره في الفكر الاجتماعي:

- طبيعة وأشكال المجتمع الإنساني: يؤيد الفارابي ما ذهب إليه أرسطو من أن الإنسان مدني بطبعه وأن الاجتماع الانساني يعتبر ضرورة لإشباع حاجات الأفراد كما يشير لأهمية تقسيم العمل والتخصص الاجتماعي ودورهما في بناء المجتمع، فالإنسان بمفرده لا يمكن أن يشبع كل متطلباته بل في حاجة إلى أناس يقدمون له بعض ما يحتاج إليه كل في مجاله ولا يتوفر ذلك إلا في إطار المجتمع الإنساني.

- قسم أشكال المجتمع الإنساني إلى نوعين: مجتمعات إنسانية كاملة وأخرى غير كاملة تتضمن المجتمعات الكاملة ثلاث مستويات:

- العليا: (أو العظمى): يمثل اجتماعات البشر كلهم على وجه الأرض.
- الوسطى: يمثل اجتماع أهل الأمة الواحدة.
- الدنيا: يشير إلى اجتماع أهل المدينة.

أما المجتمعات الناقصة أو الغير الكاملة فتنقسم إلى ثلاث مستويات :

- أهل القرية أو الحلة (وهي جزء من المدينة)
- اجتماع أهل السكة : وهو تجمع الناس في الشوارع والأسواق
- اجتماع أهل المنزل.

أساس هذا التقسيم يقوم على مدى ما يمكن أن يتحقق في كل منها من مظاهر التعاون في اشباع الحاجات ومدى حاجة كل منها لغيره أو للجماعات الأخرى: فجماعة المنزل بحاجة إلى جماعات أهل المدينة.

- مقومات المدينة الفاضلة: يشبه المجتمع بالكائن الحي فالمدينة الفاضلة كالجسم الصحيح تتعاون أعضاؤه في سبيل حياة الجسد ككل والمحافظة عليه، في سبيل إنجاز ما يحقق سعادة كل فرد فيها وطريق ذلك لا يتأتى إلا بأداء كل فرد فيها للعمل الذي يتقنه، وبما أن القلب أهم أعضاء الجسم ومحور نشاطه فإن الرئيس بالنسبة للمدينة هو قلبها النابض ومصدر حياتها ودعامة نظمها .

● أشكال المدينة الغير الفاضلة وهي:

- المدينة الجاهلية: التي لا يعرف أهلها السعادة ويعتقدون في أن الخير في ملذات البدن.

- المدينة الضرورية: التي يقصد أهلها إلى التكالب على الحاجات المادية
 - المدينة البدالة: أو التجارية: وهي التي ينزع أهلها إلى جمع الثروة واكتنازها.
 - مدينة الخسة: وهي التي يسودها اللهو والعبث وملذات البدن .
 - مدينة الكرامة: التي يقصد أهلها للصيت والشهرة.
 - مدينة التغلب: التي تسودها الروح الحربية.
 - مدينة الإباحية: التي تنعدم فيها الضوابط الاجتماعية والأخلاقية.
 - المدينة الفاسقة: وهي التي يعرف أهلها صفات المدينة الفاضلة لكنهم لا يتحلون بها.
 - المدينة الضالة: التي يضل أهلها طريق الدين ويسئون تفسير النصوص والعقائد.
 - المدينة المبتذلة: وهي التي كانت فاضلة وظهرت فيها تيارات منحرفة فتبدلت سماتها.
- 2- ابن سينا (980- 1037 م)

طرح معظم أفكاره في كتابه الشفاء، نجده متأثرا ببعض آراء أفلاطون وأرسطو والفارابي .

- المجتمع والتفاضل الاجتماعي: يرى ابن سينا أن هناك اختلافا جوهريا بين حياة الإنسان وحياة الحيوان فالإنسان يحي حياة اجتماعية تتميز بالتفكير وتحتاج لإشباع حاجات كثيرة ويتطلب ذلك أن يقوم المجتمع على تعاون أفراده، ويعتمد هذا التعاون على تفاوت كفاءات الأفراد إلى حد بعيد وهذا التفاوت يعبر عن حكمة إلهية وعليه يقوم التخصص وتقسيم العمل الاجتماعي وتتطور مبادئ التعاون المشترك، والتفاضل الاجتماعي أيضا نعمة من الله على البشر حيث من هذا المنطلق يحافظون على بقائهم وتنمو حياتهم وتتطور فلو كان البشر متساوين في أموالهم وقدراتهم لأدى ذلك إلى فناءهم وانقراضهم، فهذا التفاضل والاختلاف يجعل لكل منهم دورا يرضى عنه ويسهم به في استمرار بقاء وتطور الحياة الاجتماعية لأن اهتماماتهم وسوف تتفاضل وتنوع أيضا فالحياة الاجتماعية لا تستقيم بالتشابه ولكن بالاختلاف والتباين والتفاضل.
- عالج بعض المشاكل الاجتماعية مثل مشكلة البطالة ويتصور أن هذا العلاج يتأتى بنفي العاطلين وقبل نفيمهم يقوم الحاكم بتوجيههم نحو احترام مهنة معينة نافعة وما لم يستجيبوا نفذ عليهم النفي، تكلم أيضا على رذيلتين كفيلتان يهدم بناء المدينة وهما الزنا واللواط فهاتان المشكلتان تغضبان البصر عن الزواج وفي مقابل ذلك ينصح بالزواج ويرى دعم أركان وتقوية أواصره بحيث لا يتم الطلاق لأسباب تافهة.

3- ابن رشد (1126- 1168م) :

الذي تأثر كثيرا بفكر أرسطو ، وقد سار ابن رشد في نفس مسار الفلاسفة مثل (أرسطو، الفارابي، ابن سينا) باعتبار الإنسان كائن مدني واجتماعي بالطبع فهو يرى أن الإنسان لا تحصل له الكماليات ولا الضروريات إلا بمساعدة غيره، كما نظر للمرأة وخالف فيها آراء غيره من الفلاسفة المسلمين حيث يقول أن المرأة مشابهة للرجل من حيث الطبيعة والعقل لذا يرى أنه من المهم إطلاق جناحي المرأة وأن نحطم القيود التي كبلها بها مجتمع يسود فيه حكم الرجل الجاهل أو غير العادل، فهو يطالب بتشغيل المرأة في الأشياء التي تبرع فيها مثل الخدمات الاجتماعية والخياطة والنسيج والإنشاد، ويضيف أن هذه التربية أنتجت لنا امرأة عالة على المجتمع

وكانت سببا في شقاء المدن وهلاكه لأن عدد النساء ضعف عدد الرجال ولا يضيفن أي شيء إلى المجتمع بل شهها كالحيوان الطفيلي الذي يعيش على جسم ثالث يعجز عن تحصيل قوته الضروري.

4- الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون (1332-1406):

هو أبو زيد عبد الرحمن بن ولي بن خلدون الحضرمي ولد في تونس سنة 1332م، تتلمذ منذ طفولته على أبيه وعلى عدد من مشاهير علماء تونس، فدرس العلوم الشرعية وعلوم اللغة والطبيعية والرياضيات والفلسفة، نشأ ابن خلدون في أسرة شاركت في الحياة السياسية والفكرية، اشتغل منذ شبابه بالوظائف العامة والسياسة في دواوين العديد من الملوك والأمراء في تونس وبجاية والمغرب والأندلس ومصر والشام، ومن أهم الوظائف التي شغلها وظيفة الكتاب والأستاذ وقاضي القضاة والحاجب (رئيس الوزراء)، وكانت آخر وظيفة تولاه هي قاضي القضاة المالكية في مصر توفي في مصر ودفن هناك سنة 1406م، ألف ابن خلدون كتابا ضخما في التاريخ سماه: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاشرهم من ذوي السلطان الأكبر"، وقد مهد لهذا الكتاب بمقدمة اشتهرت بمقدمة ابن خلدون وهي التي تضمنت أفكاره الاجتماعية.

كانت لابن خلدون عدة آراء في الجانب الاجتماعي نحاول تلخيصها في بعض النقاط:

● **توصله إلى علم الاجتماع وفهم ظواهره:** استخلص ابن خلدون من قراءته للتاريخ عموما أن الظواهر الاجتماعية لا تسير حسب المصادفات أو وفق إرادة الأفراد وإنما لها قوانين ثابتة لا تقل في ثباتها عن قوانين الظواهر الأخرى، وقرر ابن خلدون أن دراسة الاجتماع البشري بهذه الطريقة ينبغي أن تكون موضوعا لعلم جديد هو علم العمران وأن هذا العلم مستقل بنفسه فإنه له موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني وذو مسائل وهي بيان ما يلقيه من العوارض والأحوال شأنه في ذلك العلوم الأخرى.

يمكن القول أن ابن خلدون كان مدركا عند كتابته "المقدمة" أنه بصدد اكتشاف أو تأسيس علم جديد هو علم العمران البشري أو علم الاجتماع الإنساني وقد ميز هذا العلم عن غيره من العلوم بقوله "أعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة، غريب النزعة غزير الفائدة، أعثر عليه البحث وأدى إليه الغوص"، إذن علم العمران البشري علم مستقل يتناول بالدراسة كل ما يلحق بالحياة الاجتماعية من عوارض أو تغيرات ويدرسها واحدة تلو الأخرى.

● **موضوع علم العمران عند ابن خلدون:** ذهب إلى أن موضوع هذا العلم يتمثل في دراسة الاجتماع الإنساني وما ينشأ عن هذا الاجتماع من ظواهر أو وقائع وقد انقسم الموضوع عنده إلى قسمين رئيسيين:

- الأول يهتم بدراسة بنية المجتمع وهو ما يعرف حديثا باسم المورفولوجيا الاجتماعية ويدرس هذا القسم ظواهر البدو والحضر وأصول المدنيات القديمة وتوزيع الأفراد على المساحة التي يستغلونها وظواهر الهجرة والكثافة والتخلخل ودرس في هذا المجال أثر البيئة الجغرافية على نشوء الاجتماع الإنساني فيشير إلى العلاقة القائمة بين درجة الحرارة وبين كثافة السكان وانتشار العمران ويقول أن المناطق المعتدلة سكانها أعدل أجساما وألوانا وأخلاقا وأديانا ويميلون إلى الاعتدال في سلوكهم ومساكنهم وملابسهم.

- أما الثاني فيهتم بدراسة النظم العمرانية التي تختلف باختلاف النشاط العمراني وهو هنا ينقسم إلى نظم سياسية واقتصادية وتربوية وعائلية ودينية.
- الإنسان مدني بطبعه كما أشار إلى ذلك من قبله أرسطو والفارابي وغيرهم فحاجة الإنسان بغيره تؤدي إلى التعاون ومن ثم إلى التضامن الذي هو دعامة المجتمع وذلك لسببين :
 - الضرورة وهي إما أن تكون اقتصادية أو دفاعية، فالاقتصادية لكون الإنسان بحاجة ماسة للغذاء ولكن قدراته لا تمكنه من توفير ذلك بمفرده، أما المظهر الدفاعي أن أفراد البشر بحاجة إلى الاستعانة بأبناء جنسه للدفاع عن نفسه من خطر الحيوانات أو باستعمال الآلات والمعدات.
 - الميل لتحقيق فكرة الجمعية فلا بد هنا من توفر جانب الإرادة والإسناد اضطرابات والعدوان المستمر فالإرادة الإنسانية الفردية هي التي تعصم الفرد من عدوان الآخرين وتؤدي للاستقرار والسلام والأمن.
 - يؤكد ابن خلدون على ضرورة قيام سلطة حتى يستقيم هذا الاجتماع ويضمن له الاستمرار وهذا الاجتماع يكون له وازع قد يكون على العصبية أو وازع ديني أو عقليا أو نتيجة احترام أحد الشيوخ.
 - وقد خلص ابن خلدون أن المجتمع البشري يمر بثلاث أطوار مثل الكائن الحي فيمر بأدوار الطفولة (النشأة والتكوين)، والشباب والنضج والرجولة (الازدهار)، والشيخوخة (الهزم)، فمرحلة النشأة لدى الكائن الحي تقابلها حياة البداوة التي تقوم على العصبية والدعوة الدينية ومرحلة النضج تقابلها مرحلة التحضر والتي تكتمل شروطها بفسوخ دعائم الملك، أما مرحلة الشيخوخة فتقابلها مرحلة الهرم فيدب الفساد في نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والدينية.
 - حظيت فكرة المحاكاة أو التقليد باهتمام كبير من مفكري علم الاجتماع ويعتبر ابن خلدون أول من تطرق لها فهو يقول بأن التقليد ظاهرة قديمة قدم الإنسان ذاته، ويرجع التقليد إلى أسباب إنسانية فالدافع يدعو الأفراد إلى تقليد بعضهم البعض خاصة تقليد المغلوب للغالب فالنفس تنتحل جميع مذاهب الغالب وتتشبه به.